



سيف الوهبي

مفهوم الحق والفناء من منظور صوفي

لطالما امتازت النزعة الصوفية في ممارساتها لمفاهيم العمق الوجداني بخصائص فريدة ومتنوعة، داعية لتغيير صفات النفس البشرية بتحليلتها بفضائل الأخلاق، مرشدة سالكيها للدوبان والتفاعل مع الخطاب الإلهي بكل تجلياته، وللنفاذ إلى الروح وجوهرها، لا بد أن تمر هذه النفس بمراحل ودروب، أولها الحق، معرفته ومحبهته، وبمحبته تتوصل النفس للفناء في محبوبها الأعلى، والفناء مرحلة يتلاشى فيها المحب في المحبوب، وفي أحرفنا القادمة ندرس سوياً مقالا للكاتب محمد بن الطيب المنشور بمجلة «التفاهم» بعنوان «فكرة الحق والفناء عند المتصوفة».

مراحل الوصول للحق

لا سبيل للولوج لعالم السير والسلوك بغير مجاهدة النفس، فأول خطوات الوصول للحق هي مجاهدة النفس الأمانة بالسوء ومحاولة ترويضها من كل ما تنوق إليه وتشتهي، لاسيما الأشياء التي اعتادت عليها، وسبيل ذلك كله هو التوبة كما اصطلاح متصوفة الإسلام تسميته، بعدها يدخل الإنسان الصوفي إلى عالمه الروحي، الذي يتحكم فيه ويسمى المياد الروحي لدى المتصوفة، بصاحب ذلك شوق ملح نحو الحق، وشعور ديني قوي وفياض، عندها يُتاح للإنسان الصعود للمكوت الله وتتحوّل نفسه عن صفاتها، وتتخلص من أدائها، فتقنّى في صفاته وتحرر من قيودها، فالله أصل كل موجود ومصدره، وهو الحقيقة الوجودية المطلقة.

بعدها تتفرغ النفس للمحبة وهي ثاني مراحل الوصول للحق، وتكون بمحبة الحق وفيها يتدوق الصوفي حلاوة الزهاد الأوائل بالاجتهاد في العبادة، والانتقال بالنفس من عاطفة الخوف من الله إلى محبته، وتتحقق هذه المحبة بالشوق والحنين إليه، والأنس والمناجاة لله وحده، ولذو القرب منه، وألم البعد عنه، فطاعة الله والمواظبة على عبادته هي فرع من المحبة عند المتصوفة، والحب حقيقة لا مجازاً، لذا قيل: العبودية محبة الله والمحبة حقيقة العبودية، والصبر والرضا حقيقة المحبين، والزهد في محبة ما سوى الله، والفقر فقر الأرواح إلى محبوبها، فجنة المتصوف القرب من الله ونيل رضاه، وجحيمهم إعراضه وصدّه. ولتتفرغ الصوفية لمحبة الله اختاروا الفناء فيه، والفناء لديهم هو التخلص من الضدية الآنية المقيدة المحدودة، ليتحقق القرب المباشر مع الله سبحانه وتعالى، ويكتسب بها الصوفي شعوراً أوسع ومعرفة أعمق ليحسوا بحضرة الله سبحانه وتعالى، ويكثر من ذكر الحق؛ ليتجلى لهم نوره، فيمحو باطل الأنانية من قلوبهم ويفتح بصائرهم بالخشية من عين الحق، والمحبة هي المحور الذي تدور عليه الحياة الصوفية والهدف الذي تتجه إليه،

الفناء

إن الفناء بمعناه الصوفي هو العالم الإطلاقي الذي يجعل من الذات المتصوفة ترقى لأن تتحلّى بفضائل الأخلاق في أعلى مستوياته ليصل بالروح إلى ما يمكن تسميته بالإنسان الكامل، وهي علاقة تنتهي باتصال الذات الإلهية، وفيها يتدرج الفاني من مرتبة الإنسان الحيواني أو الجزئي إلى مرتبة الإنسان الكامل الذي هو الصورة للحقيقة الأزلية، فيما يعرف أبو يزيد طيفور البسطامي الملقب بسليمان العارفين الفناء على أنه الامتداد الطبيعي للحب الإلهي الذي كان امتداداً للتعليق بالحق، بل لقد كان الفناء درجة من درجات الحب الإلهي الأعلى ومرتبته أسمى، فيها يتلاشى المحب في المحبوب، ويعد البسطامي أول من خاض في الفناء، إلا أن بعض المصادر تشير إلى أبي سعيد الخراز، مثلما جاء على

سبيل المثال في (كشف المحجوب) للهجويري، ومما لاشك فيه بأن رابعة العدوية كان لها الفضل الأول في ظهور مصطلحات الفناء المنبثقة من تجربتها في الحب الإلهي، وهي من مهدت الطريق لمن جاء بعدها لصياغة الفناء كمصطلح لمحو النفس الإنسانية وآثارها، وصفاتها، واضمحلال رسومها. والفناء الصوفي هو تلاشي شخصية العارف وانعدام شعوره بوجوده، ومقتضاه زوال الحجب المادية التي تفصله عن الله، فإذا زالت هذه الحجب، ودنا من الله، ذهب إنيته وانتهى إلى الاستغراق في الوحدة الإلهية التي تبدو له في صورة ذات مقدسة، يهيم في جمالها، ويتغنى بكمالها، فإذا نطق لا ينطق إلا بها، وإذا سمع لا يسمع إلا حديثها، ولا يتأمل إلا فيوض أنوارها، إنه فيها وبها، منها وإليها دائماً، يقول أبو مدين الغوث واصفاً الفناء فالحق:

الله قل وذو الوجود وما حوى ××× إن كنت مرتاداً بلوغ كمال
فالكل دون الله إن حقيقته ××× عدم على التفصيل والإجمال
واعلم بأنك والعوالم كلها ××× لولاه في محو وفي اضمحلال

وليكون العارف صوفياً خالصاً لا بد أن يدرك العلاقات التي توصله للفناء في المحبوب، ويتدرج فيها، فمفاهيم الحق والحب والمعرفة والفناء مترابطة متماسكة، إذا اختل أولها لم يدرك آخرها، فخرج الصوفي إلى العالم الروحي الذي يتحكم في وعيه المتعالي محكوم بفكرة الحق، فالحق هو أصل كل شيء فمعرفة واجب، فالحق أن تحب من تعرف، وبمحبته تذوب النفس الإنسانية وتتلاشى فتتخلص من أدائها، لتصل إلى أسمى المنازل العرفانية وهي الفناء، والتي يستشعر فيها الصوفي أنه مع الله فيفنى بنفسه مؤقتاً؛ لأنه مستغرق في تجربته الروحية يستشعر فيها أنه مع الله، وعندئذ يغيب عما سوى الله، ولكنه يعود بعد ذلك من حال الفناء إلى حال البقاء فيستشعر وجوده مرة أخرى ووجود العالم، فاستشعاره أنه مع الله وغيبته عما سواه حال كمال وذوق وعرفان.